مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 18 العدد01 2022/01/15

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الفنون الشّعرية الدّينية في العصر العبّاسي

Religious poetic arts in the Abbasid era

أوبشير إيمان*

جامعة أبي بكر بلقايد–تلمسان – مخبر الدراسات النقدية والأدبية وأعلامها في المغرب العربي

oubachir.imane@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/10/15 تاريخ القبول: 2020/12/23

ملخص:

بعدما انبثق شعاع الإسلام و شعّ نوره ليُنير للبشريّة طريقها المُظلم؛ ظهر الأدب الدّيني عند العرب، فوقفت فنونه الإسلامية بمختلف أنواعها تؤيّد هذا الدّين، و كان الشّعر من أبرز هذه الفنون الّتي ساهمت في خدمة الإسلام لِما له من أثرٍ كبير في نفوس العرب، فلطالما تجسّد الزّهد في حياة الشّعراء العبّاسيين و سلوكياتهم و رسم منهج التّقوى بعد المجون و الزّندقة، و لم يفُتهم الثّناء على الله و مناجاته بأشهر قصائد الإلاهيات، و نفّسوا عن مشاعرهم في حُبّ الذّات الإلاهية عبر نصوص التّصوّف، و ساندوا الدّعوة الإسلامية فمدحوا الرّسول و أشادوا بفضائله عبر قصائد المديح، كما حَفَلَ ديوانهم بألمع موضوعات الرّثاء تحسُّرًا لفراق أحبابهم، إذ تركوا تراثًا رائعًا من القصائد المليئة بالقيم الرّوحية و المعاني الدّينية الإسلامية الّتي اكتسبت رقّةً و سهولةً و تأثيرًا في النّفس.

الكلمات الدّالة: الفنون الشّعرية، العصر العبّاسي، الزّهد ، التّصوّف الإسلامي، المديح النبوي.

Abstract:

After the appearance of Islam which radiated to enlighten humanity on its paths of darkness, emerged among the Arabs a new kind of literature called, religious literature, and its various Islamic arts supported Islam and cited its benefits.

Poetry is one of the most well-known arts that has served Islam with its immense impact on the personalities of Arabs. Asceticism or more commonly known as Zuhd so reflected the life of the Abbasids, and their behaviors by playing a major role that schematized the methods of piety after the Madjoune and the Zandaqa, therefore the poets sang the praises of god through theological poems that expressed their love for the divine through texts of sanctification (Tasawuf)

* **المؤلف المرسل**: أوبشير إيمان، **الايميل**: oubachir.imane@hotmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

They supported the companions of Islamic Proselytism by praising the prophet and his valuable principles through poems of praise (MADIH Nabawi). Their collections are also very rich in lament poems that mourned their loved ones

They bequeathed us an immense heritage of magnificent poems rich in Islamic values and spiritualism facilitating the impregnation of the personality and impacting it in a good way.

Keywords: Poetic arts; Abbasid era; Asceticism; Islamic Sufism; Praissing the prophet.

المتن:

مقدمة:

يزخر العصر العبَّاسي بموروثٍ أدبيّ غنيّ بِكنوزٍ نفيسةٍ متنوّعةٍ، ممّا يستدعي التّعمّق في دراسِتهـا، و تسليط الضّوء على هذا العصر و التّنقيب فيه، و كشف السّجوف عن نفائسه لاستلهامه و معـالجته للإفادة و الاستفادة، باعتبار أنّ الخطاب الدّيني في العصر العبّاسي قضيّة جديرةٌ بالدّراسة، لما لها من أهمّية بالغة في ولادة النّصوص، و تجلّيها تحقيقًا للسّلطة، و ليس للنّصّ بمعنى ولادة نص خاضع للسّلطة من جهةٍ و تفوّق الإيديولوجيا على الأدب من جهةٍ أخرى، و لاشكّ أنّ الشّاعر العبّاسي شاعرٌ كرّس حضورًا دينيا إسلاميا في معظم الفنون الشّعرية ، إذ أنّ للدّين الإسلامي دورٌ جوهريٌّ في شخصيته و عاملٌ فعّال للتعبير عن مكنوناته، حيث استسقى ثقافته الأدبية من أوعيته، و نثرها في فنون شعرية شتّى، حتّى أصبح هذا العصر مصبًّا أو نهرًا عظيمًا يتلقف السّيُـــول و الجداول على اختلاف ألوانها و طعومها . و لكي تتّضح الرّؤية لابدّ أن أعرّج – فوق الإيجاز و دون الإسهاب- على شذرات من شعرهم الّذي دارت حوله الدّراسات الأدبية و الشّعرية في العصر العبّاسي .

مِن هذا المنطلق ،حاولت الإجابة على تساؤلات عديدة :

- ما المقصود بالشّعر الدّيني ؟ ما مدى تناغم المواضيع الشّعرية الدّينية مع الحياة العبّاسية ؟
- ما هي أبرز الأغراض الشّعرية الّتي تأثّر بها الشّاعر العبّاسي ؟؟

و قد ابتغيت من البحث في هذا الموضوع :

- أن أنفخ الرّوح من بوق هذا البحث في الكرام القارئين فأوقظ همما، و أحيي عزائم .
- أن أستقرئ مُساهمة الشّعر في خدمة الإسلام و أصالة الدّراسات العربيّة الدّينية.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

و لأنّ المنهج التّكاملي مِن خير ما استقرّت عليه مناهج الدّراسة الأدبية ، فقد اعتمدته حسب ما رأيته مناسبا لطبيعة الموضوع : فالمنهج **الوصفي** أثناء تحديد ماهية الشّعر الدّيني ، ثمّ **المنهج التّاريخي** عند تتبّع و تقصّي مميّزات أبرز الفنون الشّعرية الدّينية ، و **المنهج التّحليلي** من خلال تحليل النّماذج المختارة لدراسة هذا الموضوع.

أمّا عن الخطّة الّتي اتبعتُها في هذا المقال ، فتتمثّل في عنوانين رئيسيين، تسبقهم مقدّمة و تعقبهم خاتِمة

أمّا العنوان الرئيسي الأول : عنونته ب : " ماهية الشّعر الدّيني" و قد تعرّضت فيه إلى ترجمة الشّعر الدّيني لغة و اصطلاحا .معتمدة على تعريفات الأدباء و النّقّاد، مُسترشدة مُستضيئة بِرأْيٍ من سبقني.

أما العنوان الرئيسي الثاني : فقد عنونته بِ" الأغراض الشّعرية الدّينية ". حيث تضمن خمس عناوين فرعيين؛ و هي: الزّهد، الإلاهيات، التّصوّف، المديح، الرّثاء .

أولا: العنوان الرئيسي الأول: ماهية الشّعر الدّيني

1 العنوان الفرعي الأول:

إنّ شعراء العصر العبّاسي وُلدوا في كنف الدّين الإسلامي، و ترعرعوا في ظلّ الحركات و الفرق و المذاهب الإسلامية، فأُشربوا من المعاني الإسلامية الخالدة، فضلاً عن تأثّرهم بالقرآن ألفاظًا و معاني و أسلوبًا و مضمونًا، و فصاحةً و بلاغةً، إضافة إلى الحركة الفكرية و التّرجمة، فأصبح المجتمع العبّاسي مصبًّا يتلقّف سيول الثّقافات الأجنبية من كلّ صوبٍ.

الأدب الإسلاميُّ إلى جانب كونه رسالةً و مسؤولية فإنّه أيضًا إبداعٌ فنّيٌّ، ذلك أنّ "حقيقة الأدب الإسلامي هي التّجربة الشّعورية من الوجدان و الخواطر المُفعمة بالقيم الإسلامية في بناءٍ غنيّ يعتمد على وسائل التّأثّر و الإقناع، من الألفاظ الفصيحة و الأسلوب البليغ، و النّظم الدّقيق و التّصوير المُحكم بالخيال و العقل معًا، و الاتّساق في الإيقاع المتدفّق بأشكاله المتعدّدة سواءً أكان وزنًا و إيقاعًا في الشّعر، أو نموًّا و تطوُّرًا في الأحداث كالقصّة و الأقصوصة، أو قصرًا في العبارات و الجمل كأنواع المقالة الأدبية.." (الأدب الإسلامي – المفهوم و القضية–، 1412هـ/1992م،)

الأدب الدّيني في العصر العبّاسي كما جسّده شِعر هذه الحِقبة متعدّد و متباين، يعتلج فيه الدّين بالسّلطة في لطفٍ بالغ و احتراف بارعٍ، فقد عرّف **محمد قطب** الأدب الإسلامي بقوله: "هو التّعبير

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان... فهو الّذي يهيّئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمّة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود" (منهج الفن الإسلامي ، 1983م)

ويقول **عماد الدّين خليل** معرّفا الأدب الإسلامي: "هو تعبير جمالي مؤثّر بالكلمة عن التّصور الإسلامي للوجود" (خليل، 1987م). و جاء على لسان **نجيب الكيلاني** في تعريفه للأدب الإسلامي: "إنَّ الأدب الإسلامي تعبير فنّي جميل مؤثّر نابع من ذات مُؤمنة مُترجم عن الحياة والإنسان و الكون وفق الأُسس العقائدية لِلمسلم" (مدخل إلى الأدب الإسلامي، 1407هـ)

نخلص من ذلك كلّه، إلى أنّ الشّاعر العبّاسي قد أبدع في نظم الأغراض الشّعرية الدّينية؛ إذْ نسج عليها حُللاً زاهية، و تأثّر بالقيم الإسلامية، فحثّ على الصّلاح و دعى إلى الفضيلة و الصّلاح، و نعى على المنحرفين ظلالهم فصوّر واقع الحياة العبّاسية الّتي كانت تتمتّع بنصيبٍ كبيرٍ من الجدّ و التّديُّن و المُحافظة رغم التّرف و الثّراء و ضعف الوازع الدّيني الّذي كان مقتصرًا على طبقة الحكّام و من حولهم .

ثانيا: العنوان الرئيسي الثاني : أغراض الشّعر الدّيني .

1 العنوان الفرعي الأول: الزّهد

الزّهد لغة : جاء في لسان العرب والقاموس المحيط أنّ الزّهد هو القلّة، و الشّيء الزّهيد هو الشّء القليل، و لفظ " زهد" لا يقال إلاّ في الدّين خاصة. و الزّهد ضّدّ الرغبة و الحرص على الدّنيا، و التّزهيد في الشّيء خلاف التّرغيب فيه (لسان العرب ، 1876) ، و في الصّحاح : الزّهد خلاف الرّغبة في الشّ، يقال فلان يتزهد بمعنى يتعبّد (الجوهري، 1979)"

أمّا اصطلاحا : فهو الكفّ عن المحارم، و التّوبة إلى الله، و هو القناعة و الاكتفاء بالحاجة، و الرّضى بالقليل، وصرف النّظر عن الحياة و زينتها، و هو نهي النّفس عن الهوى و تخلية القلب و صفاؤه و رقّته و شفافيته (أروع ما قيل في الزهد ، 1992م)

و الزّهد بالمعنى الإسلامي هو: الانصراف عن الدّنيا و مفاتنها، و التّمسّك بالتّقوى و العمل الصّالح مع الكسب ... و تضمّن شعر الزّهد دعوة إلى مكارم الأخلاق، و نبذ الحياة الدّنيا و العيش للآخرة، و

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قد تعدّدت تعريفات الزّهد من باحث لآخر لِتعدُّد المشارب و الرُّؤى المختلفة غير أنها تصبّ في معنى واحد.

و لا تُعدّ ظاهرة الزّهد ظاهرة في العصر العبّاسي، إذْ إنّ لها جذورها في العصور السّابقة، فهناك العديد من الأشعار في العصر الإسلامي و الأموي مضمونها قطع أسباب الاتّصال بلهو الحياة و ملذّاتها و متاعها السّاعي إلى الزّوال، إلاّ أنَّ هذا الفنّ قد استقلّ و استقام و أصبح فنّا قائمًا بذاته في هذا العصر، و كأنه ظهر لِيكون ندًّا لتيّار الزّندقة و المجون الّذي كان سائدًا.

و من الشّعر الزّهدي ما قاله الصّحابيّ و الشّاعر الإسلامي " حميد بن ثور الهلالي"مُرشِدًا الإنسان إلى المصير المحتوم قوله : (الديوان، 2010م)

فَـلَا تَـأْمَـنَـنَّ بَيَـاتَ المـنُـون و كُـنْ حَـذِرًا حَـدَّ أَظْـفَـارِهَـا

فَـإنَّ الـمَنِيّـة مَـا أَسْـرَأَتْ مِـن القَـومِ عَـادتْ لِإسَـآرهَا

إنّ الاتّجاه الزّهدي لم يكن وليد تلك الظّروف الّتي عايشها المجتمع العبّاسي فحسب، بل كان موجودًا في الأفئدة و النّفوس إلاّ انّه يشتدّ حسب ارتفاع درجة الفساد الذي يعيشه المجتمع، فيزداد و يقوى كلّما غرق المجتمع في اللّهو و المجون و انكبّ على الملذّات.

فالشّاعر **أبو العتاهية** يضمن أبياته جانبًا عن تقلّب الدنيا من حلاوة إلى مرارة، فإن أسعدت قليلا فإنّها تُحزِنُ كثيرًا، و إنْ أعزَّتْ يومًا فإنّها تُذِلُ دهرًا، و من قصائد أبي العتاهية نقتطف ما يلي : (ديوان أبي العتاهية و أخباره و أشعاره ، 1384هـ/1965م) [من البسيط]

أُهْرُبْ بِـنَفْسِكَ مِنْ دُنْـيَـا مُـضَلَّلَـةٍ قَـدْ أَهلَكَتْ قَبْلَكَ الأَحْيَاءَ وَ المِلَلاَ

مُرٌ مَـــذَاقَةُ عُقْبَـــاهَا وَ أَوَّلُـــهَـــا غَدَّارَةٌ تُـــكْثِرُ الأَحْـــزَانَ و الـعِلَلآ

إِنْ ذُقتُ حَلْوَاءَهَـا عَادَتْ عَوَاقِبُهَـــا مرارةً يَـجْـتَـــويـــهَا كُلّ مَـنْ أَكَلاَ

و قد تأثّر الكثير من الشّعراء العبّاسيين بهذا الجوّ القرآني الّذي رسم حدود التّقوى في آياته فرسمها في أشعاره؛ و منهم **سفيان الثّوري** (ت161هـ) قائلا (حلية الأولياء و طبقات الأصفياء،، 1416هـ/1997م) :

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَــرْحَـلْ بِــزَادٍ مِنَ التُّــقَى وَ لاَقَــيْتَ قَبْلَ المَــوْتِ مَــنْ قَــدْ تَــزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُــتونَ كَــمِـثْـلِهِ و أَنّــكَ لَــمْ تَــرْصدْ مَــا كَــانَ أَرْصَدَا

ومن الشّعراء الزّهاد الّذين أجادوا التّصوير الفنّي ليوم القيامة، فحفظ لهم التّاريخ أسمى معاني التّقدير و الاحترام؛ هو **الإمام عبد الله بن المبارك** (ت181هـ) إذ قال :(ديوان الإمام المجاهد ابن المبارك،، 1432هـ)

وَ كَيْفَ قرّتْ لِأَهْــلِ العِلمِ أَعيُنُهم أَوْ اسْتَلَذوا لَذيــذَ النَّومِ أَو هَجَعَــوا
وَ المَوْتُ يُــنْذِرُهُــم جَهْــرًا عَلانِيَةً لَوْ كَــــانَ لِلْقَوْمِ أَسْمَــاعٌ لَقَد سَمِعُــوا

و قد سار **محمود الوراق** (ت230هـ) على منحى الزّهد و التّزهيد، فحرص على التّذكير بالآخرة و الدّعوة إلى العمل لها و عمارتها، فيقول : (ديوان محمود الوراق شاعر الحكمة و الموعظة، 1412هـ/1991م) [من السّريع]

يَــا عَـامِرَ الدّنْيَـا عَلَى شِـيبِــهِ فِيـكَ أَعَـاجِـيبُ لِــمَــنْ يَـتعْجَبُ
مَــا عُــذْرُ مَــنْ يَـعْمُرُ بُنْيَـانُــهُ وَ عُــمْـرُهُ مُــسْـتَهــدَمٌ يـُخْــرَبُ؟

2 عنوان فرعي ثاني : الإلاهيات

لم يفُتْ شعراء العصر العبّاسي، خلال مسيرة الشّعر العربي المجيدة، أن يُفردوا لمناجاة الله تعالى مساحات واسعة ملؤها الإبداع، يسطِّرون فيها تعلُّق أنفسهم، التي زكّتها التّقوى ورقّقها الأدب، بالخالق الكريم سبحانه وتعالى، الّذي لا يقطع التّوبة عن عباده وإن ملُّوا من الاستغفار .

و لعلّ الثّرى الطّيّب نبّه في شاعر الدّنيا **أبي نوّاس** روح التّقوي، فما أنّه أحرم و جنه اللّيلُ ، حتّى جعل يُلبّي و يحدو و يطرّبُ بِصوته، فاجتمع إليه كلّ من سمعه، فقد ابتهل في هذه القصيدة التي وصفت بأنها خير ما يعبر به عن توبته وانكساره مستغفراً: (أبو نواس شاعر هارون الرّشيد و محمّد الأمين)

إِلاَهَــنَا، مَــا أَعْدَلَــكْ ! مَــلِـــيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكْ
لَبَيْــكَ، قَــدْ لَـبّيْتُ لَكْ لَبَّيْكَ، إِنَّ الــحَمْدَ لَـكْ
وَ المُلْكَ لاَ شَرِيـــكَ لَكْ مَــا خَــابَ عَـبْدٌ أَمَّـلَكْ
أَنْــتَ لَــهُ حَيْــثُ سَلَكْ لَـــــوْلاَكَ، يَـارَبِّ، هَلَكْ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لَـــــبَّيْكَ إنَّ الحَمْدَ لَكْ، وَ المُلْكَ لاَ شَـــرِيكَ لَكْ
وَ اللَّـــيلُ لَـمَّا أَنْ حَلِك، وَ السَّـابِحَـاتُ في الــفُلْكِ

أمّا **الإمام الشَّافعي** (ت204هـ) فإضافةً إلى كونه عالِمًا، في عديدٍ من العلوم الشّرعية، كان أديبًا و شاعرًا فصيحًا، و كان شعره في أغلبه يتناول الحكمة و مناجاة الخالق، و الدّعاء و الاستغفار، لذلك انتشر شعره بين النّاس و لا يزال مُتداولا حتّى الآن و في هذا المقام يقول: (ديوان الإمام الشّافعي، 1971م، صفحة 34)

إلَيْـكَ إلَــهَ الخَـــلْقِ أَرْفَـعُ رَغْـبَتِي وَ إنْ كنتُ –يا ذا المنِّ والجودِ– مجرمَا
ولمَّا قَسَا قَلْبي ، وَ ضاقتْ مذاهبي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِــعَـفْوِكَ سُــلَّمَـا
تــعَاظَمني ذَنبي فـــــلمَّا قــرنْتُـــهُ بعفوِكَ ربي كَــانَ عَـفْـــوُكَ أَعْظَمَـا

3 عنوان فرعي ثالث : التصوّف

لا شكّ في انّ التّوغّل في تلافيف الشّعر الصُّوفي في العصر العبّاسي يستدعي من الباحث وُلوج بحر لُجِيٍّ يغشاه الإفراط في الشّعور، و موجز الكلام ما قاله محمّد مرتاض :"انّ التّصوّف هو الوصول إلى الله الحقّ و ليس مجرّد الوصول إلى مقامٍ ما" (التّجربة الصّوفية عند شعراء المغرب العربي،، 2009م، صفحة 12)و من مصطلحات الصّوفيين :الشّوق، الحبّ، الفناء، العشق، الوجد، البقاء...

"... و لا يهلّ القرن التّال الهجري إلاّ و يُصبح التّصوّف بمعناه الخاصّ، و هو أنّه رياضةٌ روحيةٌ تهدف إلى الوصول إلى الله، و من ثمّة أصبحنا نسمع مصطلح الفناء، و المشاهدة و الكشف و البقاء، الّتي ترتّبت كلّها على الحبّ "(التّصوّف في الشّعر العربي،، 2003م، صفحة 46)

و للنّسَـاء نصيبٌ في التّصوّف و الاستغراق في حُـبّ الذّات الإلاهيـة، و لعَـلَّ أشعَـار سيّدة التّصوّف **رابعة العدوية** (180هـ) من أجمل ما قيل في هذا المِضْمـار، إذ يتجلّى فيهـا الحبّ الإلاهيّ و العِشق الرُّوحي لِلخالق، من مثل قولها في رباعيّتها المشهورة( ):

أُحِبُّكَ حُبّيْنِ : حُبَّ الهَوَى ، وَ حُـبًّـا لِأَنَّكَ أَهْـلٌ لِـذَاكَـا
فَأَمَّـا الذّي هُوَ حُبُّ الهَوَى فَشغْـلِي بِـذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَ أَمَّـا الّذي أَنْتَ أَهْـلٌ لَهُ فَكَشْفُـكَ لِلْحُجُبِ حتَّى أَرَاكَا

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فَلاَ الحَمْدُ في ذَا، وَ لا ذَاك وَ لكن لَكَ الحَمْدُ في ذَا وَ ذَاكَ

تعتبر رابعة هي رائدة الحبّ الإلاهي، إذْ كَانَ التّصوّفُ قبلهَا، قائمًا على الرّجاء في الجنّة و الخوف من النّار، إلى أن ظهرت على المسرح الصّوفي؛ فانتقل التّصوّف معها من الرّجاء و الخوف إلى الحبّ الإلاهي أمَّا **الفضيل بن عياض**(ت187 هـ) فقد سمع النّداء الإلاهي يدوّي من أعماق نفسه و فؤاده، فتطلّع إلى حياة التّقوى و الفضيلة و الإيمان،فقد حبّب الله الإيمان إلى قلبه، و كرّه إليه الفسوق و العِصيان، فكان من الرّاشدين، و من شعره الصّوفيّ نقتطف ما يلي: (الفضيل بن عياض–صوفيٌّ من الرّعيل الأوّل، 1420هـ/2000م،، صفحة 49)

بَـلَـغْـتُ الـثَّـمَـانِـيـنَ أَوْ جُـزْتُـهَا فَـمَـاذَا أُؤَمِّـلُ أَوْ أَنْـتَـظِـرْ

أَتَـى لِي ثَـمَـانُونَ مِـنْ مَـوْلِدِي وَ بَـعْدَ الـثَّمَـانِـيـنَ مَا يُنْتَظَرْ

4 عنوان فرعي رابع : المديح

تُعرف المدائح النّبويّة كما يقول الدّكتور زكي مبارك بأنها فنّ :"من فنون الشّعر التي أذاعها التّصوف، فهي لون من التّعبير عن العواطف الدّينية، وباب من الأدب الرّفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوبٍ مُفعمةٍ بالصّدق والإخلاص، و أكثر هذه المدائح قيل يعد وفاة الرّسول ﷺ" (المدائح النبوية في الأدب العربي، 1935، صفحة 17)

و لوْ تتبّعنا المديح في العصر العبّاسي الأول؛ لطال بنا الحديث و تشعّب، لأنّ أنواع المديح كثيرةٌ: مدح الخلفاء و المُلوك، و مديح الوزراء و الأمراء، و مديح العلماء و الأدباء، ومن المعهود أن المدح النبوي الخالص لا يشبه ذلك المدح التّكسّبي أو مدح التّملق المُوجَّه إلى السّلاطين و الملوك و الخلفاء ، وإنَّما هو مدح خاصٌّ بأفضل خلق الله هو محمّد عليه أفضل الصّلوات و أزكى التّسليم، و يتَّسم بِالصِّدق والمحبَّة والوفاء والإخلاص والتّضحية والانغماس في الّتجربة العرفانية والعشق الروحاني اللّدني.

فقد أصبح المديح الإسلاميُّ في هذا العصر غرضًا رئيسيًّا، يشكّل معظم دواوينهم، فلطالما مدحوا النبيَّ و أَشادُوا بأهل بيته، ومن هؤلاء الشّعراء **أبو العتاهية** إذ يقول : (ديوان أبي العتاهية و أخباره و أشعاره، صفحة 116) [من الطّويل]

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

سَـــلامٌ عَـلَى قَبْـرِ الـنّبِيّ مُحَـمَّــدٍ نَبِيّ الهُدَى وَ المُصْطَفَى وَ المُؤَيَدِ
نَبِـيٌّ هَـدَانَــا الله بَعْـدَ ظَـلاَلَــةٍ بِهِ، لَمْ نَكُنْ لَوْلاَ هُدَاهُ لِنَهْتَدِي
فَكَــانَ رَسُــولُ الله مِفْتَـاحَ رَحْمَةٍ مِــنَ اللهِ أَهْدَاهَــا لِـكُلِّ مُوَحَّدِ
وَ كَانَ رَسُولُ اللهِ أَفْضَلَ مَنْ مَشَى عَلَى الأَرْضِ إلاَّ أَنَّــهُ لَمْ يُخَلَّـدِ

نصادف الشّاعر **دِعبِل الخُزاعي**(ت235هـ) يدعو بالسّقيا لِقبر خير الأنام ﷺ، فيُعدِّد الصّلاة عليه و يُعدِّدُ خصاله و مناقبه قائلاً: (ديوانه،، 1414هـ/1994م، صفحة 41)

سَقَى اللهُ قَبْرًا بِالمَدِينَةِ غَيْثُهُ فَقَدْ حَلَّ فِيهِ الأَمْنُ بِالبَرَكَـاتِ
نَبِيُّ الهُدَى صَلَّى عليه مليكه و بلغ عنّا روحــه التّحفــات

و يمدح **القاسم بن يوسف (235هـ)** النّبيّ ﷺ بأنّه خير البريّة و أنّه رسول الله إلى العالمين جميعًا، و بِرِسَالَته هَدَمَ الظّلم و الظّلال، فيقول (اتّجاه الشّعر الإسلامي في العصر العبّاسي الأوّل، 1973هـ، صفحة 47):

أَلاَ إِنَّ خَــيْـرَ بَـنِي آدَمَ نَبــيُّ الـهُدَى و التُّقَى وَ الكَـرَمْ
مُحَمَّدٌ المُصْطَفَى و الرَّسُو لِ إِلَى النَّاسِ مِنْ عُرْبٍ وَ عَــجَم
بِأَحْمَدَ أَغْلَقَ بَــابَ الظَّلاَ لِ وَ هَــدَّمَ أَرْكَــانَــهُ فَــانْهَــدَمْ

ويتَّضح لنا – ممَّا سبق ذكره – أن شعر المديح النَّبوي شعرٌ صادقٌ و هو جزءٌ من المديح الإسلاميّ الَّذي يصوّر الإيمان العميق، و العِفّة و المروءة و الصّدق و الأمانة و السّماحة و غيرها من الصِّفات السّامية الّتي تثير في نفوسنا حبّ التّمسّك بالفضيلة و كراهية الاتّصاف بالرّذيلة.

و أنَّ المديح النَّبوي يتميّز بصدق المشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب الرّسول ﷺ طمعًا في شفاعته و وسَاطَتِه يوم الحِساب .

5 عنوان فرعي خامس : الرّثاء

يعدُّ الرّثاء من أهمّ الأغراض الشّعرية و أصدقها، بل أصدق ضروب الآداب الإنسانية و أكثرها صلةً بالنّفس البشريّة، و التصاقًا بالوجدان الإنساني، و من أكثر أغراض الشّعر استمرارية و بقاءً.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

و الرّثـاء لا يختلف عن المدح إلاَّ في كوْن الممدوح ميّتًا، و هذا ما ذهب إليه ابن رشيق القيرواني، في قوله: "و ليس بين الرّثاء و المدح فرقٌ إلاَّ أنّه يُخلط بالرّثاء شيءٌ يدلُّ على أنّض المقصود به ميّت، مثل: كان أو عدمنا به، كَيْتَ و كيت، و ما يُشاكِل هذا لِيُعلَم أنَّه ميّت" (العُمدة في نقد الشّعر و تمحيصه، ، 1426هـ/2003، صفحة 426)

و ممّا لا شكّ فيه أن **الخنساء** هي شاعرة الحزن و الرّثاء و البكاء بلا منازع و هي أشهر من بكت و استبكت في الجاهلية؛ فقد بكت الدّهر على أخويها و والدها و حزنت السّنين عليهم، يقول النّابغة الذّبياني: " الخَنْسَـاءُ أَشْعَرُ الإِنْسِ وَ الجِنِّ"، و من أجود شعرها ما قالته في أخيها صخر، و منه : (الديوان، 1425هـ/2004م، صفحة 72)

يُـذَكِّـرُنِي طُلُـوعُ الشَّمْـسِ صَخْـراً وَ أَذكُـرُهُ لِـكُلِّ غُـروبِ شَمْـسِ
وَ لَـوْلاَ كَـثْـرَةُ البَـاكِـيـنَ حَـوْلِي عَلى إِخْوَانِهِم لَـقَتَـلْـتُ نَفْسِي
وَ مَـــا يَبْكونَ مِثْـلَ أَخي وَ لَـكِن أُعَزِّي النَّـفْسَ عَنْـهُ بِـالتَّأَسِّـي
فَـــلاَ وَ الله لاَ أَنْـسَـــــاكَ حَـتَّى أُفَـارِقَ مُـهْـجَـتِي وَيُـــشَقُّ رَمْسِي

فلمّا دانت الرّقاب لبني العبّاس اقتفى شعراؤهم نهج أسلافهم من شعراء بني أميّة في مراثيهم، و من بين الشّخصيات الّتي أكثر الشّعراء العبّاسيون من رثائهم: الوزراء و الخلفاء و القادة حيث رثوهم بقصائد تُعدُّ من روائع الشِّعر العربي، (بطام، 1995م، صفحة 275)و في ندب الأبناء و الإخوة و الأقارب ما عبّر عنه بشّار بن برد (ت 168هـ) في رثاء ابنه مُصوّرًا المصيبة الّتي ألمت به، مُبديًا تسليمه لقضاء الله و قدره، قائلاً :(ديوانه، 2007م، صفحة 279)

جَـارَتَنَـا لا تَـجْزَعِي وَ أَنِـيبِي أَتَـانِـي مِـنَ المَوْتِ المُطِـلِّ نَصيبِي
صَبَرتُ عَلى خَيرِ الفُتُـوِّ رُزِئْتُهُ وَ لَوْ لاَ اِتِّـقَـاءُ الله طَـالَ نَحِـيبِي
وَ لِي كُـلَّ يَـوْمٍ عَبْرَةٌ لاَ أفِيضُـهَا لِأَحْظَى بِـصَبْـرٍ أَوْ بِحَـطِّ ذُنُـــوبِ

و قد بثَّ **ابن الرّومي** في مرثيته إحساسه القاسي، مُتوجّعًا لفراق ابنه، متحسّرًا لِموته، فنظم في رثائه داليته المشهورة الّتي يقول فيها : (الديوان، 1423هـ/2002م، صفحة 400)[الطويل]

بُـنَيَّ الَّذي أَهْـدَتْـهُ كَفَّـاي للثَّرَى فيا عزَّةَ المُهْدَى وَ يَـا حَسْرَةَ المُهْدِي

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

توخَّى حِمَامُ الموْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي فَلِلَّهِ كَيْفَ اخْتَارُ وَاسِطَةَ العِقْدِ
على حِينَ شَمْتُ الخيرَ من لَمَحاتِهِ وَ آنَسْتُ مِنْ أَفْعَالِه آيَةَ الرُّشْدِ

و المتتبّع للأدب العبّاسي، يجده حافلاً بقصائد عديدةٍ نُظمت في هذا الغرض، و كمثالٍ على ذلك **المتنبي** في رثاء جدّته الّتي كان يحبّها حبًّا جمًّا، فيحاول أن يعزّي نفسه في جدّته و فقدانها، قائلاً: (موسوعة روائع الشّعر العربي (الرّثاء)، صفحة 34)

أحِنُّ إلى الكأسِ الَّتي شرِبَتْ بها و أهوى لِمَثواها التُّرابَ و ما ضَمّا
بَكَيْتُ عَلَيْهَا خِيفَةً في حَيَاتِها و ذاقَ كِلانَا ثُكْلَ صَاحِبِهِ قِدْمَا

و قد راج ضربٌ جديد من الرّثاء في العصر العبّاسي، عُرف برثاء المُدُن الّتي أصابتها الكوارث أو حلَّ بها الدّمار، و قد بكى كثيرٌ من الشّعراء تلك المدن، فوصفوا عزّها و مجدها، و صوّروا مَا حلَّ بها من خراب، إذ صارت المدينة في العصر العبّاسي معنى و وجود فى نفوس أهلها، وإن أهلها صاروا تربطهم بها روابط كثيرة مادية ومعنوية، فتُولِّد فى نفوسهم شعورًا إنسانيًا نبيلاً إزاءها فعبَّروا عنه في صِدقٍ وحرارةٍ عِندما رأوا الخراب والدَّمَار يحلُّ بها، كأنَّهم فقدوا عزيزًا لديهم.

وكثيرة هى القصائد الّتى قيلت فى رثاء المدن بذلك الوقت و أشهرها قصيدة رثاء البصرة حين استباحها و أهلها الزّنج للشّاعر العبّاسي **ابن الرّومي** ، فقد استهلّ قصيدته ببيان ضخامة الحادثة حيث نزل بالبصرة من ضروب الذّل و الهوان ما ملأ نفسه ألما و لوعةً و حسرةً، فقد أغمس قلبه بدم قلبه المتفجّع أمام الأشلاء مُبعثرةً بين التّلال، من أوجه آباء و أمّهاتٍ و شبّانٍ و رُضّعٍ ، و من مرثيته الميمية المشهورة ما قاله: (ديوانه، صفحة 338)

ذادَ عَنْ مُقْلِتي لذيذَ المنامِ شُغلها عَنْهُ بِالدُّمُوعِ السّجَامِ
أَيُّ نَومٍ مِنْ بَعْدِ مَا حَلَّ بِالبَصْ رَةِ مِنْ تِلْكُمُ الهنَاتِ العِظَامِ
أَيُّ نَوْمٍ مِن بَعْدِ مَا انْتَهَكَ الزّنْ جُ جِهَاراً مَحَارِمَ الإِسْلاَمِ
لَهَفَ نفسي عليكِ أيَّتُها البَصْ رةُ لَهْفاً كَمِثْلِ لَفْحِ الضِّرامِ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إلى جانب ابن الرّومي نجد الشّاعر **إسحاق الخُرَيْمي** (ت212هـ) في رثاء بغداد أيام الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون، و تُعتبر قصيدته أطول و أهمّ قصيدة رثى بها شاعرٌ عربيٌّ مدينةً من المدن، و يقول فيها (ديوانه، 1971) :

قَـــالُـوا : وَ لَمْ يَـلْعَب الزَّمَـانُ بِبَغْـ دَادَ وَ تَـعْـــثُـرْ بِـهَـا عَـوَاثِـرُهَـا

إذْ هِيَ مِـثْـلُ الـعَـرُوس، بَـاطِـنُهَـا مُـشَـوَّقٌ لِـلْـفَـتَى وَ ظَـاهِـرُهَـا

و قد نطيل إن نحن مضينا في سرد الأمثلة و النّصوص في هذا الموضوع الواسع ، و ما قصدنا سوى الإشارة فقط للحديث عن هذا اللّون الشّعري

خاتمة:

و في وصول هذا البحث إلى غايته الّتي يُرتجيها؛ نستنتج جملة من النّقاط أهمّها :

◊ أنّ الخطاب الدّيني في العصر العبّاسي قضيّة جديرةٌ بالدّراسة، لما لها من أهمّية بالغة في ولادة النّصوص، و تجلّيها تحقيقًا للسّلطة، و ليس للنّصّ بمعنى ولادة نص خاضع للسّلطة من جهةٍ و تفوّق الإيديولوجيا على الأدب من جهةٍ أخرى.

◊ الأدب الإسلاميُّ إلى جانب كونه رسالةً و مسؤولية فإنّه أيضًا إبداعٌ فنّيٌّ، ذلك أنّ "حقيقة الأدب الإسلامي هي التّجربة الشّعورية من الوجدان و الخواطر المُفعمة بالقيم الإسلامية في بناءٍ فنيّ يعتمد على وسائل التّأثّر و الإقناع .

◊ أنّ الشّاعر العبّاسي قد أبدع في نظم الأغراض الشّعرية الدّينية؛ إذْ نسج عليها حُللاً زاهية، و تأثّر بالقيم الإسلامية، فحثّ على الصّلاح و دعى إلى الفضيلة و الصّلاح، و نعى على المنحرفين ظلالهم

◊ أنَّ العصر العبّاسي قد أملى على معظم الشّعراء خوض أغراض الشّعر لمجاراة الحياة الاجتماعية، و من بين هذه الأغراض شعر الزّهد، التّصوّف، الإلاهيات، المديح، الرّثاء ..

◊ أنّ ظاهرة الزّهد تعدُّ موجة طارئة على العصر العبّاسي، و هي فنٌّ جديد نشأ في الشّعر العبّاسي بتأثير موجة اللّهو و المجون التي ظهرت وانتشرت ، يدعو إلى الرّجوع إلى البساطة في كلّ شيءو قطع أسباب الاتّصال بلهو الحياة و ملذّاتها و متاعها السّاعي إلى الزّوال، قد استقلّ و استقام هذا الغرض

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

و أصبح فنّا قائمًا بذاته في هذا العصر، و كأنه ظهر لِيكون ندًّا لتيّار الزّندقة و الإباحية و المجون الّذي كان سائدًا آنذاك.

◊ أنّ نصوص المناجاة قد برع في نظمها أولئك المجيدين لسُموّ الأدب العبّاسي الّذي يرتقي بالمشاعر ويسمو بها في فضاءات التبتُّل والصّفاء، ويدعوها إلى توحيد الله تعالى والإخلاص في العبادة وتجنُّب المعاصي والآثام .

◊ أنّ الصّوفية قد شكّلت حضورًا قويًّا في القرن الثّاني هجري، و أصبحت بمثابة عَلَمٍ، ينضوي تحت هذا اللّواء كلّ من طبع بالزّهد و الورع، و النّص الشّعري الصّوفيُّ يتميّز بصدق التّجربة لكونه وليد معاناة، ذلك لأنّ الصّوفي عاشقٌ يُنفّس عن مشاعره بكلمات تتّسم بالرّمزية الّتي تفرضها طبيعة المعاني الرّوحية.

◊ أنَّ شعر المديح النَّبوي شعرٌ صادقٌ و هو جزءٌ من المديح الإسلاميّ الَّذي يصوّر الإيمان العميق، و العِفّة و المروءة و الصّدق و الأمانة و السّماحة و غيرها من الصِّفات السّامية الّتي تثير في نفوسنا حبّ التّمسّك بالفضيلة و كراهية الاتِّصاف بالرّذيلة.

◊ أنّ قصائد الرّثاء في العصر العبّاسي قد اتّسمت بصدق العواطف و المشاعر، إذ أفصح فيها الشّعراء عمّ يختلج فؤادهم؛ فـرَثَوْا الابن و تحسّروا على شبابه، و رثَوا الأب و أشادوا بِبرّهِ، و رثَـوْا الأُمَّ فأفجعوا بفراقها و فقدان حنانها، و رَثَـوْا الأخ و تذكّروا شهَـــامته و مروءته، و رثت الزّوجة زوجها فاعتصر قلبها ألَمًا لفقدان سندها، و رثاها هو كذلك فعبّر عن مدى كِبَرِ فجوة فراغ غيابها في قلبه. و قد راج ضربٌ جديد من الرّثاء في هذا العصر ما عُرف برثاء المُدُن الّتي أصابتها الكوارث أو حلَّ بها الدّمار.

قائمة المراجع:

1. الأصفهاني الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله(ت430هـ): حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، دار الفكر للطّباعة و النّشر، بيروت، لبنان،1416هـ/1996م، ج06.

2. بدوي؛ عبد الرّحمان : شهيدة العِشق الإلاهي–رابعة العدوية–، مكتبة النّهضة المصرية للطّبع و النّشر، القاهرة، ط2، 1962.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

3. بشّار بن برد: ديوانه، تح: الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور، دار الطّباعة الشّعبية للجيش، الجزائر، 2007م، ج1.

4. بطام مصطفى: مظاهر المجتمع و ملامح التّجديد من خلال الشّعر في العصر العبّسي الأوّل132هـ/232هـ، ديـوان المطبـوعـات الجامعية، الجزائر، ط05، 1995م.

5. الجوهري، الصحاح، ت: أحمد عبد الفخور عطار، دار العلم للماليين، بيروت، لبنان، ط4 1979 م، ج2 ، مادة (ز هـ د)

6. حسّان؛ عبد الحكيم : التّصوّف في الشّعر العربي، مكتبة الآداب ، القاهرة، 2003م.

7. الخزاعي، دِعبل بن عليّ: ديوانه، شر: حَسَن حَمَد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، 1414هـ/1994م.

8. خفاجي؛ محمد عبد المنعم ، علي علي صبح، عبد العزيز شرف، الأدب الإسلامي – المفهوم و القضية–، دار الجيل، بيروت، ط01، 1412هـ/1992م.

9. خليل؛ عماد الدّين: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان،1987 م.

10. الخنساء: الدّيوان، تح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط02، 2004م.

11. ابن الرّومي: ديوانه، شر: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط03، 1423هـ/2002م، ج01/ ج03

12. زكي مبارك: المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، الطبعة الأولى 1935.

13. الشّافعي؛ أبي عبد الله محمد بن إدريس: ديوان الإمام الشّافعي، تح: أيمن السّيد الصّيّاد، دار الكتب العلمية بيروت، 1971م.

14. الشّامي؛ يحيى: أروع ما قيل في الزهد، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط1 ،1992م.

15. أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية و أخباره و أشعاره، تح: شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ/1965م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

16. عبد الحليم محمود: الفضيل بن عياض–صوفيٌّ من الرّعيل الأوّل–، دار الرّشاد، القاهرة، ط02، 1420هـ/2000م.

17. قطب محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشّروق، القاهرة، دط، 1983 .

18. القيرواني، أبو عليّ الحسن بن رشيق: العُمدة في نقد الشّعر و تمحيصه، دار صادر، بيروت، ط01، 1426هـ/2003م.

19. الكيلاني؛ نجيب: مدخل إلى الأدب الإسلامي، كتاب الأمة (سلسلة تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، قطر، 1407هـ.

20. ابن المبارك؛ عبد الله: ديوان الإمام المجاهد ابن المبارك، تح: مجاهد مصطفى بهجت، مكتبة الملك فهد الوطنية للنّشر، الرّياض، 1432هـ.[1]

21. محمّد مرتاض: التّجربة الصّوفية عند شعراء المغرب العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، السّاحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 2009م.

22. الهلالي؛ حميد بن ثور: ديوانه، تح: محمّد شفيق البيطار، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط01، 2010م.

23. الوراق؛ محمود، ديوان محمود وراق شاعر الحكمة و الموعظة، تح: وليد قصاب، مؤسسة الفنون، عمان، ط01 ، 1412هـ/1991م.